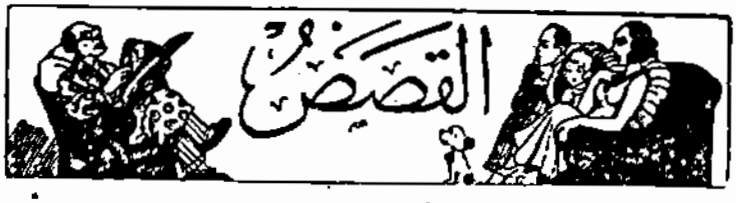

ليـلة فى مقبرة

عن جى دى موباسان

بقلم الأستاذ رمزى مزيغيت

لقد أحببتها حب جنون . . ولا تسلنى لماذا يحب المرء ، وهو إذا ما أحب تغيرت حاله وبات لا يرى من النـاس إلا شخصا واحدا ، ولا يختلج قلبه إلا برغبة واحدة ، ولا تهمس شفتاه إلا اسما واحدا يتصاعد من أعماق الروح كما تتصاعد المياه من الينابيع . . اسما واحدا يردده العاشق على الدوام ويهمس به حيثما كان كالصلاة .

سأروى لك قصة حبنا ، وما قصتنا إلا قصة الحب الخالدة التى لا تتغير أبدا الدهر . .

لقد قابلتها يوما وأحببتها . . هذا كل ما جرى . . ثم عشت معها حولا كاملا ذقت خلاله صفو الحياة وانطلقت بدنيا الحب ألحق بأجواء الغرام ، أغرد فى أنس وأسكن فى أمن . . فكان لى من حبها دنيا جعلتنى سعيدا خليا لا أبالى بمقاسى أو مآلى . .

ثم ماتت . . كيف ماتت . . لست أدرى . . ! ؟ كل ما أعلمه أنها عادت إلى البيت ذات ليلة ماطرة مبللة الثياب . وفى اليوم التالى انتابتها نوبة من السعال أخذت حدتها تشتد يوما بعد يوم. ومضى أسبوع على هذا الحال فلزمت الفراش . . أما ما حدث بعد ذلك فلا أذكر منه إلا أن الأطباء حضروا وفحصوا الداء ووصفوا الدواء ، وجاءت بعض النسوة لرعايتها وتمريضها . . كانت يداها ملتهبتين وجبينها يشتعل نارا وعيناهـا لامعتين حزينتين ، وكنت أحدثها وتحدثنى . . أما ماذا كنت أقول وماذا كانت تجيب فلست أدرى . . فقد نسيت كل شىء . . ولست أذكر سوى أنها ماتت ، وسوى تلك الآهة الواهنة التى انفلتت من بين شفتيها ساعة انطلقت روحها إلى بارئها

وحضر الكاهن وسمعته يقول لى . . « أهذه خليلتك ؟ » فخيل إلى أنه يسىء إليها وينتهك حرمة الموت فطردته شر طرد ، وجاء غيره وكان وقورا طيبا ، فراح يحدثنى عنها بلطف واحتشام ومقلتاى تهرقان الدمع مدرارا . .

وجاء المشيعون ، وأودعوها نعشها ، وثبتوا غطاءه بالمسامير ثم حملت إلى المقبرة — مثواها الأخير — ووارروها فى جثوة ضيقة عميقة باردة . . وأذكر أنى هربت ، وركبت أعدو من شارع إلى شارع كمن به مس من الجنون ، حتى بلغت البيت . . وفى اليوم التـالى رحلت

وقد عدت يوم أمس . . ولما دخلت غرفتها ورأيت أثاثها وكل ما خلفته وراءها مر بخاطرى شريط متتابع الصور من الأمس الحبيب ، فعاودتنى الأحزان وعصرت قلبى عصرا ، وشعرت برغبة ملحة فى أن أقذف بنفسى من النافذة . .

ولم أستطع البقاء بين تلك الأشياء وبين تلك الجدران التى كانت تحتويها ، فقد كنت أشعر بأنفاسها ما زالت عالقة بجو الغرفة . . فاختطفت قبعتى واندفعت هـاربا . . وفى طريقى إلى الباب مررت بالمرآة الـكبيرة القائمة فى البهو — تلك المرآة التى وضعتها هى هنا لتتأمل فيها نفسها وتصلح من شأنها كلما أزمعت الخروج

واقتربت من تلك المرآة التى طالمـا انعكست صورتها على صفحتها ، وخيل إلى أنها ما زالت هناك . . فانتابتنى الرعدة وجرى فى جسدى تيار بارد ، وتعلقت عيناى بالمرآة — ذلك الزجاج المتبسط الفارغ الذى طالمـا احتواها وملـكها بكليتها كما ملـكتها يوما وملـكتها عيناى . . وشعرت كأنى أحب ذلك الزجاج الأملس فمددت يدى إليه فاذا هو بارد لا حياة فيه . . آه منك أيتها المرآة الفارغة الرهيبة ! وآه من تلك الأحزان القاتلة التى تبعثينها فى قلوب الرجال !

سعيد ذلك الرجل الذى يستطيع أن ينزع من قلبه كل ما احتواه ويسدل على أمسه سترا ويكفن ماضيه ويواريه حفرة نائية ، يا إلهى لشد ما أتعذب . !

وخرجت من البيت دون ما شعور أو تفكير وركبت أضرب فى شوارع المدينة على غير هدى ، حتى وجدتنى أتجه إلى المقبرة . . وهناك وجدت قبرها البسيط وعليه صليب أبيض من الرخام حفرت عليه هذه الـكلمات —

« أحبت وأحبت ، ثم ماتت » . . .

نعم ماتت ، وها هى هنا تحت الثرى وقد تعفنت وحالت إلى تراب . . يا لله . . وبكيت طويلا ورأسى مسند إلى قبرها . .

ثم بدأ الظلام يرخي سدوله . واكتسحتني رغبة جنونية — رغبة العاشق اليائس — في أن أقضي آخر ليلة بجانب قبرها . ولكني خشيت أن يبصر بي أحدهم ، فما العمل . ؟ ليس أمامي إلا الحيلة .. فرحت أتجول في مدينة الموتى وأتنقل من هنا إلى هناك .. ولشد ما بدت لي هذه المدينة صغيرة بالنسبة لمدينة الأحياء .. ولكن ساكنيها ولا شك أكثر عددا وعديدا .. ومع ذلك فهم يقنعون بهذه البيوت الوضيعة بينما نحن الأحياء نطلب القصور العالية والشوارع الواسعة والمأكل الشهي والمشرب العذب ، لنعود في النهاية إلى التراب وننضم إلى أجيال الموتى التي سبقتنا ؛ ويطوينا المجهول وإياها بردائه

وقادتني قدماي إلى طرف المقبرة حيث تقوم القبور القديمة المتآكلة الصلبان والتي حالت أجساد ساكنيها إلى تراب لا يلبث أن يصبح مهداً للمزيد من الأموات .. وكانت الأزهار في هذا الركن تقف على سيقانها سقيمة الحسن ذاوية البهجة . ولا عجب ، فانها ترتوي من ماء الأبدان .. ولم يكن في هذا الجزء أحد من الأحياء ، فتسلقت شجرة عتيقة واختبأت بين أغصانها ، ومكثت هناك طويلا متعلقا بجذع الشجرة كما يتعلق الغريق بحطام السفينة

وأخيرا انقض الليل على المكان حالكات نقابه ، فنزلت من مخبأي وأخذت أسير ببطء وحذر فوق تلك الأرض المليئة بالموتى .. وتجولت بين القبور فترة طويلة دون أن أهتدي إلى قبرها .. فسرت باسطا ذراعي أمامي أتحسس طريقي ، ولكني لم أعثر على قبرها .. وأعدت الكرة فلم أترك شيئا إلا ولمسته .. الصلبان والأحجار والأسوار الحديدية وأكاليل الزهر الاصطناعية وأكاليل الزهر الذابلة اليابسة ، وقرأت أسماء أصحاب القبور بأطراف أصابعي ، ولكن دون جدوى .. يا لها من ليلة .. فقد كانت ليلة ضريرة النجم والقمر ، ملأت قلبي رعبا وفزعا وأنا أتنقل في الممرات الضيقة بين القبور . ولم يكن هناك سوى قبور . قبور في كل مكان .. ومن ثم جلست على واحد منها بعد أن نال مني التعب وتملكني اليأس . وكنت أسمع دقات قلبي بوضوح وأنا جالس هناك وحيدا مرتعداً . ثم طرق أذني صوت آخر غامض انبعث من جوف الظلام أو باطن الأرض المزروعة بأجداث الموتى .. فتلفت حولي وأنا أكاد أختنق من الخوف والرعب . وفجأة شعرت أن السطح الرخامي الجالس فوقه قد أخذ يتحرك كأن يدا تدفعه .. فوثبت إلى قبر مجاور ونظرت إلى القبر الذي كنت جالسا عليه فرأيت الحجر يرتفع ومن تحته هيكل بشري يدفعه بظهر متقوس ويرغم الظلام الحالك فقد كنت أراه بوضوح ، وقرأت على صليب قبره هذه الكلمات —

« هنا يرقد جاك أوليفانت الذي توفي عن ٥١ عاما وكان محبا لأسرته لطيفا شريفا ، ومات في محبة الله . »

وقرأ الهيكل أيضا ما كان مكتوبا على قبره ثم انحنى والتقط حجرا صغيرا مدببا وراح يمسح ما كتب عنه بكل عناية حتى طمسها جميعا ، وأخذ ينظر إلى ما فعل من محجريه الأجوفين .. وبخط أشبه بما يكتبه الأطفال على الجدران بالطباشير راح يكتب بعظمة إصبعه هذه الكلمات «هنا يرقد جاك أوليفانت الذي مات عن ٥١ عاما ، ولقد عجل بوفاة والده بسبب معاملته الفظة وطمعه في الحصول على الإرث .. وكان يعذب زوجته وأولاده ويخدع جيرانه ويسرق ، وفي النهاية مات تعيسا شقيا »

وبعد أن فرغ الهيكل من كتابته انتصب بعظامه يحدق فيما خطت يده ، وعندما تحولت بنظري عنه شاهدت أن جميع القبور قد فتحت وانسلت منها هياكل ما كنيها وراح كل منهم يمسح ما كتبه الأقارب والخلان على صليبه ويكتب مكانها بنفسه مايعرف عن حقيقة نفسه . ولشد ما كانت دهشتي حين تبين لي أنهم كانوا جميعا كذابين منافقين ، حاسدين آفاقين ، معذبين لزوجاتهم وخادعين لجيرانهم ، سارقين ، ارتكبوا كل منكر وشائن ... كانوا جميعا الآباء الطيبون منهم والزوجات الوفيات والأبناء البررة والبنات العفيفات والتجار الأمناء ، يكتبون على عتباب مثواهم الأبدي حقيقة أنفسهم المروعة ، تلك الحقيقة التي لم يكن أحد غيرهم يعرفها أو كان يعرفها ويتجاهلها عندما كانوا أحياء يرزقون

وخطر لي عندئذ أنها ربما تكون هي الأخرى قد كتبت حقيقة نفسها . فرحت أعدو بين القبور المنشورة وسط الهياكل والأجداث الى حيث يوجد رسمها . ولم اجد صعوبة في الاهتداء اليها هذه المرة ، وعرفتها في الحال رغم اختفاء وجهها تحت ملاءة بيضاء .. وعلى الصليب الرخامي حيث قرأت منذ حين أنها أحبت وأحبت ثم ماتت » طالعتني هذه الكلمات — « خرجت ذات يوم غزير المطر لتخون حبيبها فأصيبت بنزلة برد وماتت .. »

ويبدو أنهم عثروا علي فجر اليوم التالي ملقى على القبر مغشيا علي ..

رمزي مزيغيش